النظام الدكتاتوري في العراق

وآثاره النفسية والتربوية على المجتمع

د. رفعت عبدالله جاسم

افتعل نظام الحكم السابق) (جملة من الظواهر والآليات عند استلامه للسلطة بهدف احداث تغيرات عميقة في سايكلوجية الانسان العراقي وبنية المجتمع العراقي. للتمهيد الى مرحلة الاحتلال العسكري للعراق من قبل القوى الاستعمارية الجديدة. ومن ابرز الظواهر والآليات التي أفتعلها:

١.ظاهرة الندرة والشحة:

بدأت ظاهرة اختفاء المواد الغذائية من السوق بمجرد استلام النظام السابق للسلطة في العراق عام ١٩٦٨. حيث بدأت تختفي مواد غذائية أساسية من السوق مثل الحنطة وما صاحبها من جلبة إعلامية حينها تتعلق بالحنطة المسمومة، واختفاء معجون الطماطة، والبيض، والدجاج، والبطاطا، والسجاير...الخ.

٢.ظاهرة الإلهاء:

من خلال ظاهرة عدنان القيسي على سبيل المثال، حيث بدأ الناس يتكلمون عن هذه الظاهرة صغارا وكبارا. الى جانب نشر الأغاني والاهتمام بالمطربين والفنانين العراقيين والعرب. الى جانب التوسع في فتح الملاهي الليلية ومحال شرب الخمور، والسماح لدور السينما بعرض الأفلام الإباحية، واستيراد الراقصات من دولة عربية معروفة وبشكل غير مسبوق، وكذلك جلب بنات الليل من الفلبين...الخ.

٣.آلية الرعب والتخويف

قام النظام السابق بنشر الرعب والتخويف في العراق بوسائل عدة منها اعدام المناوئين للنظام واعدام شبكات التجسس المزعومة وعلى رؤوس الاشهاد لبث الرعب بين المواطنين واقتعال ظواهر مثل (ابو طبر) وتجنيد الفتوات أو مايطلق عليهم بالمصطلح العراقي الشعبي (الاشقياء) للعمل ضمن سلك الشرطة واعطائهم رتب عسكرية شرفية لفرض هيبة الدولة على المواطنين وبالقوة والتخويف.

٤.آلية الافقار والتجويع

وتتمثل هذه الآلية بظاهرة الحصار الاقتصادي والتي يمكن اعتبارها من أخطر الظواهر التي عانى منها الشعب العراقي. حيث استطاع النظام السابق من خلالها تدمير القدرة الشرائية للمواطن العراقي وافقاره حيث أضطر العراقيون الى بيع كل مايمتلكونه وأصبح غالبية العراقيين خصوصاً في المنطقتين الوسطى والجنوبية تحت خط الفقر وبمراحل عديدة. كما قام النظام باختعال شركات وهمية تقوم بأخذ أموال المواطنين ومدخراتهم ومن ثم الهروب الى الخارج وهذه الشركات هي في الحقيقة تديرها المخابرات العراقية تحت مسميات وهمية مثل (سامكو) وغيرها. كذلك إختعال نزول سعر صرف الدولار في عام ١٩٩٤ الى مايقرب من ١٠٠٠٠٠ دينار عراقي بعد ان كان يبلغ مايقرب من ٤٠٠٠٠٠ دينار عراقي حيث استطاع النظام بهذه اللعبة الاقتصادية من سحب الكثير من أموال العراقيين ومدخراتهم.

٥.آلية الضغط النفسي

من خلال الإبقاء على ظاهرة شحة التيار الكهربائي. فمن المعلوم ان النظام السابق قام بعمل الكثير من المشاريع العملاقة خلال فترة التسعينات من القرن الماضي مثل برج الاتصالات في بغداد والجسر ذو الطابقين وغيرها ولكنه لم يبذل اي جهد حقيقي لحل أزمة الكهرباء. بل انه أستغل هذه الظاهرة لخدمته للضغط على العراقيين. فيما أبقى العاصمة بغداد خارج منطقة الضغط من خلال تأمين الكهرباء لها بشكل دائم.

٦.آلية التطهير العرقي والمذهبي

قام النظام السابق بعملية تطهير ومذهبي كبيرة. حيث شجع المواطنين العراقيين العرب على الذهاب الى المنطقة الشمالية وقدم لهم مغريات في هذا الصدد. كما قام بتشجيع المواطنين الاكراد على المجئ الى وسط وجنوب العراق بهدف تغيير خارطة الشعب الكردي. كما قام بعملية تطهير مذهبي هائلة مستغلا الحرب المشتعلة ضد ايران. فالمعروف ان غالبية الجيش العراقي آنذاك وخصوصا الجنود والرتب الصغيرة هم من سكان المنطقتين الجنوبية والوسطى وبتعبير أدق من العراقيين الشيعة. اما الرتب العالية وأجهزة الامن والمخابرات وأجهزة الامن الخاصة فأن منتسبيها من سكان محافظات صلاح الدين، والانبار، وديالى، ونينوى. أي من العراقيين السنة. ومعروف ان ضحايا الحروب يكون معظمهم من الجنود والرتب الصغيرة، أي من العراقيين الشيعة.

٧.آلية الافقار العلمي والثقافي

حيث قام النظام بأكبر عملية تفريغ وافقار ثقافي وعلمي في التاريخ لشعب من شعوب الارض. أستخدم النظام السابق فترة الحصار في عقد التسعينات من القرن الماضي وقام بشكل ظاهري غير حقيقي بمنع اساتذة الجامعات والمهندسين والاطباء من السفر خارج العراق. ولكنه في الحقيقة كان يقوم بتهريبهم الى خارج العراق من خلال خدعة رخيصة ومكشوفة وهي دفع مايقرب من مليون دينار عراقي للحصول على جواز عراقي (مزور!!) ومن ثم الهروب خارج العراق، ومن خلال هذه الخدعة المكشوفة وضغط الحصار المخيف ترك العراق عشرات الآلاف من المهندسين واساتذة الجامعة والأطباء الى جانب عشرات الآلاف من العمالة الوسطى الماهرة. وخير دليل على ذلك وجود مايقرب من ٥٠٠٠ طبيب عراقي في الكنترا وحدها.

سوف يتم الحديث عن احد الآليات سالفة الذكر وبالتفصيل وتشريحها وتحليلها من وجهة نظر علم النفس، الا وهي آلية الافقار والتجويع والتي عرفت في تسعينات القرن الماضي بظاهرة الحصار الاقتصادي على العراق.

الآثار النفسية والاجتماعية الناجمة عن الحصار الأقتصادي على العراق في تسعينات القرن الماضي

(صناعة الجوع)

لقد عانينا نحن -العراقيين- ولم نزل الكثير من عدوانية الآخرين، ليس بسبب ما قاموا به وما يزالوا من تدمير وتخريب وقتل ولكن ما يحاولونه -وهو هدفهم الاساس-

تدمير بنية الشخصية العراقية. ويمكن تأشير اهمية هذا البحث من خلال قضيتين مهمتين الاولى انسانية والثانية علمية مع وجوب التنويه الى ان هاتين القضيتين... يجمعها رابط واحد لا انفصام له. اما القضية الانسانية ، فتتعلق بالحصار الذي فُرِضَ على شعبنا ، حصار لا مثيل له، حيث لا يؤشر لنا التاريخ الحديث او القديم وعلى حد سواء ان شعباً كشعبنا تعرض لكل هذا التضييق والحرمان وعلى مدى أكثر من عقد من الزمان. ومساهمة هذا البحث في هذا الجانب تتعلق بتأشير الآثار النفسية والاجتماعية الخطيرة التي سعى فارضوا الحصار الى تركيزها في تركيبة الشخصية العراقية بهدف تفتيتها وتركيعها لاحقاً.

اما القضية العلمية فتتعلق بوجوب استثمار المعرفة العلمية المتخصصة في مجال الحياة العلمية، بتعبير ادق، ربط حركة البحث العلمي الاكاديمي بعجلة الحياة اليومية للمجتمع حتى ادق تفاصيل هذه الحياة. والا فأن البحث الاكاديمي سيبقى في واد وحاجات المجتمع في واد اخر. أي ربط الجهد الاكاديمي ومؤسسات الدولة الاخرى على اختلافها ربطاً ينتج عنه في النهاية دفعاً لعجلة التطور الاجتماعي ككل.

أخيرا قد يواجهنا أحدهم بسؤال نجد أنفسنا مضطرين لمواجهته مفاده بأن قضية الحصار قد أصبحت من الماضي، فما هي جدوى تناول قضية قديمة؟؟ قد يكون لهذا السؤال بعض الوجاهة في حال اننا نتناول قضية بسيطة حدثت بمحض الصدفة في مجرى الحياة وعفا عنها الزمن وانتهت. ولكن فيما يتعلق بقضية الحصار فنحن امام عمل مُخَطط له وآثاره لم يمحوها الزمن، ناهيك عن قضية مهمة وهي ان مناقشة القضايا العلمية لايقلل من أهميتها مرور السنين والا لاصبح البحث التاريخي عاثلا على البحث العلمي والحقيقة ان الامر غير ذلك. الى جانب قضية مهمة أيضا ان الوضع السياسي حتى عام ٢٠٠٣ لم يكن يحتمل مناقشة هكذا قضايا بسبب من طبيعة النظام السياسي السائد آنذاك.

ان السؤال – المركب – الذي هنا والذي يستند عليه هذا البحث هو : ما كانت أهداف ذاك الحصار؟ وما هي آثاره النفسية والاجتماعية على شعبنا ؟

ان المحاولة في هذا البحث تنصب باتجاه الكشف عما كان يجول في اذهان مخططي وفارضي الحصار، بتعبير آخر محاولة استعراض (سيناريو) الحصار كما تصوره اصحاب القرار، وما الذي كانوا يتوخونه ويتوقعونه من هذا الحصار الذي فُرِضَ على الشعب العراقي.

المبحث الاول

الإنسان هو الهدف

تشير بعض التقارير الى انه تم في العام ١٩٨٥ ولادة علم جديد في الولايات المتحدة الامريكية أسمه علم النفس السياسي Political Psychology. وتشير هذه التقارير الى ان علماء السياسة ورجال السياسة والمخابرات هناك كانوا كثيرا مايواجهون الفشل في كثير من القرارات التي أتخذوها رغم طول الدراسة والتمحيص. والسبب في ذلك هو تركيزهم على العوامل والمتغيرات المادية وعدم أخذهم لدور العوامل غير المادية أي العوامل النفسية بنظر الاعتبار. ،وكان الحل هو محاولة الاستفادة من علماء النفس وجرهم الى (فرق العمل) و (اللجان المتخصصة) من اجل الوصول الى تقنيات جديدة اكثر فاعليه في التأثير على الافراد والشعوب داخل وخارج أمريكا. (المختار،١٩٨٩،ص٧-٨)

ان التاريخ المذكور سابقاً يجب ان لا يجعلنا نعتقد ان رجال السياسة الغربيون بدءوا من هذا التاريخ استعانتهم بعلماء النفس لتمرير مخططاتهم واهدافهم السياسية. فالتقارير تشير مثلاً، الى ان الحكومة الانكليزية –ومنذ بداية القرن الثامن عشر– كانت تستعلم عن (الرأي العام) Public opinion بواسطة شبكة من المراسلين كان المسؤول عنهم (دانيال ديفو).

اما (نابليون) فقد كلف بنات الهمة الكونت (دي لافايت) (روكان، ١٩٧٨،ص١٥٨)، كما أنشأ الفرنسيون، ايضاً، منذ بداية ثورتهم الكبرى في نهاية القرن الثامن عشر، ادارة ضخمة يمكن اعتبارها وزارة للعمل الدعائي (ربيع،١٩٧٤،ص١٠١). اما بالنسبة للولايات المتحدة فيعتبر البعض ان البداية الرسمية للاستعانة (بالخدمات النفسية) بشكل رسمي يرجع الى الحرب العالمية الثانية عندما أنشئ هناك مكتب الاعلام الحربي office of war information (ربيع،١٩٧٤،ص١٠٠).

في احصائية صادرة عن (المركز القومي للعلوم National Science foundation) في امريكا عام (١٩٧٠)، اشارة الى ان اكثر من (١٠٪) من مجموع العلماء الذين استخدمتهم الحكومة الفدرالية في العام المذكور كانوا من علماء النفس(Lindgren & Byrne، ١٩٧٥، p ٤). وفي دراسة مسحية (للجمعية النفسية الامريكية) اجريت في السبعينيات –ايضاً– في القرن الماضي لمعرفة نسب توزيع الوظائف الرئيسية التي يشغلها المختصون في علم النفس، تبين ان النسبة الاكبر من هؤلاء يعملون في الجامعات والمعاهد –وهذه حالة طبيعية ومنطقية– ولكن الملفت للنظر آن (ثالث) اكبر نسبة من بين مختلف المجالات التي يعمل فيها هؤلاء المختصون هي مع الحكومة الامريكية ونسبتهم (٦٪) من اجمالي العدد الكلي لهم في ذلك الوقت والبالغ (٣٠٠٠٠و٧٠) مختص بين حامل للدكتوراه او الماجستير (دافيدوف،١٩٨٠،ص٢٩-٣١).

ان هذه التقارير والاشارات سالفة الذكر وبما تتضمنه من حقائق قد تثير استغراباً لدى القارئ العادي وتساؤلاً من قبيل (ما الذي يريده الامريكان من كل هؤلاء المختصين بعلم النفس؟) يُعَدُ تساؤلاً مشروعاً!! ان مخططي السياسة الستراتيجيين الغربيين عموماً يضربون على وتر حساس فهم يخططون برامجهم الداخلية والخارجية على حد سواء على اساس (الانسان) بغض النظر عن جنسيته او قوميته. وعلى سبيل المثال، يعتبر عالم النفس المعروف –الالماني الاصل– (كيرت ليفن) صاحب نظرية المجال Field theory الرجل الثالث في الحركة الصهيونية العالمية في القرن الماضي. حيث قام بتأسيس الآلة الدعائية المخيفة للحركة الصهيونية العالمية. وكان معهد (ماساشوسيتس) هو مركز ورشة العمل الدعائي هذا في امريكا. وقد إستفاد (مجلس الطوارئ الصهيوني) من نتائج الدراسات والابحاث التي كان يقوم بها ليفين لشن الحروب الدعائية النفسية على خصومهم –داخل وخارج– الولايات المتحدة منذ نهاية النصف الاول من القرن الماضي (ربيع، ١٩٧٤،ص٧٠-٧١).

ان الانسان هو عصب الحياة على وجه البسيطة، فهو مركز الثقل الاساس في كرتنا الارضية. والانسان –وكما هو معلوم لدى المختص وحتى غير المختص– عبارة عن مجموعة من الحاجات والغرائز والرغبات، تتراوح ما بين ما هو مشترك مع عالم الحيوان، كالحاجة الى الطعام والشراب والتزاوج وصولاً الى الحاجات التي تميزه عن عالم الحيوان ويختص بها وحده وهي الحاجات الانسانية النفسية العليا كالحاجة الى احترام الذات وتأكيدها وتذوق ما هو جميل ومنظم... الخ. باختصار فأن الانسان عبارة عن تركيبة معقدة من مجموعة من الغرائز والافكار والمشاعر والقيم. بسم الله الرحمن الرحيم

((ونفس وما سواها × فألهمها فجورها وتقواها × قد افلح من زكاها × وقد خاب من دساها)) صدق الله العظيم (سورة الشمس،الآية ٧-١٠)).

المسألة بسيطة اذن والهدف واضح. فاذا استطعنا ان نبرمج خططنا بشكل يأخذ بالحسبان كيفية التلاعب والتحكم بعقل ومشاعر وغرائز هذا الانسان فاننا بالنتيجة سوف يكون بإمكاننا فرض سيطرتنا على هذا الكائن. هناك وبكل تأكيد اختلافات وفروقات بين البشر من حيث العرق والجنس والعادات والتقاليد والقدرات العقلية او من حيث المركز الاجتماعي او الاقتصادي او السياسي... وغيرها من الفروقات الفردية والاجتماعية التي تميز البشرعبر الزمان والمكان ولكن هناك شيء مشترك واحد في خضم كل هذه الفروقات هي اننا نتحدث عن كائن حي اسمه (الانسان): هذا الكائن هو الذي يقف وراء كل ما هو مصنوع في هذه الارض.. فهو الذي بنى الحضارات ولا يزال .. والانسان هو الذي يخترع و يبتكر ويصنع الآلات.. وهو الذي يكتب ويؤلف الروايات والقصائد.. وهو الذي يصدر القرارات السياسية.. الخ.

الحضارة اذن بكل وجوهها ومنتجاتها هي من صنع الانسان (بكليته) بعقله ومشاعره وقيمه الروحية وكذلك بدوافعه الغريزية وحاجاته النفسية.. عندما يتحرك الانسان او عندما يتكلم او يعمل او عندما يفكر او يتعبد فهو انما يتصرف في كل هذه المفاصل بشكل كلي، أي بكل جوانب شخصيته مع تفضيل اكيد لجانب او آخر وحسب مقتضيات الظرف و الموقف.وهكذا: اذا أردنا فرض ارادتنا على مجريات الحياة بكل صورها وتفاصيلها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية وغيرها فما علينا الا ان نوجه اسلحتنا الى صانعها... الانسان: الى افكاره وحاجاته و مشاعره.. اذا نجحنا في ذلك فسيكون بامكاننا ان نتحكم بمجريات حياة هذا الانسان.. ان نتحكم بمبادئه وقيمه.. امانه وطموحاته وبالتالي قراراته وطريقة تفكيره وبالنتيجة النهائية (سلوكه) بشكل عام. بهذا الشكل يفكر مخططوا السياسة الغربيون .. وهذا هو بالتحديد ما يفسر اهتمام المخططين الستراتيجيين الغربيين بالاستعانة بعلماء النفس وبالصورة غير العادية التي تم الاشارة اليها سابقاً، وذلك لفرض نقل افكارهم واراداتهم واهدافهم و تحويلها الى سياسات وبرامج عمل للسيطرة على الانسان.

ان من جملة الحقائق التي يجب ان لاتغيب عن اذهاننا هي ان ضحايا هذه السياسات هم ليسوا شعوب دول العالم الثالث فقط: بل الشعوب الغربية هي الضحية ايضاً، من خلال التلاعب بأفكار ومشاعر المواطن الغربي ووجوده كأنسان. والشواهد الواقعية على ذلك كثيرة منها على سبيل المثال (التفكك الاسري) من حالات الطلاق المرتفعة الى حالات هجر الابناء لعوائلهم (تحت عناوين براقة كالحرية والاستقلال الذاتي) والبطالة، ادمان المخدرات البغاء، والدعارة، الجريمة المنظمة والعنف المتفشي حتى بين اطفال المدارس الابتدائية، الشذوذ الجنسي، الاغتراب النفسي والاجتماعي، السرقة، القتل، الامراض العقلية ذات الارقام المرتفعة،نسب الانتحار المرتفعة. اليست هذه الظواهر ان كان على صعيد الفرد او المجتمع عبارة عن حقائق دامغة على ضياع حقوق الانسان هناك؟. يشير البعض –بجهل او تجاهل شديد– الى هذه الظواهر باعتبارها افرازات عرضية جانبية لتقدم التكنولوجي المميز للحضارة الصناعية المادية التي ارهقت صانعها الانسان. والحقيقة غير ذلك تماماً فهذه الظواهر ليست نواتج عرضية لهذه الحضارة انما هي ظواهر مصنوعة ومقصودة، أي ان هناك من يتعمد نشر هذه الظواهر السلبية وتكريسها بين اوساط الشعوب الغربية . وفي هذا المجال تبنى المدعو (كسلر) –وهو المسؤول في منظمة (ايباك) اليهودية عن الارتباط مع الجامعات الامريكية– اسلوباً في العمل شرحه بالقول ((نحن معروفون بالنوبي ذي الجاذبية الجنسية..)) (شيفتن،١٩٨٨،ص٢١٧).

ولكننا مع كل هذا لا يمكن ان نمنع كائناً من يكون من ان يتساءل عن الفائدة المتوخاة لهكذا عمل؟. ان الانسان عندما (ينغمس) في ممارسات غير اخلاقية ينحدر الى الهاوية ويفقد مرتكزات وجوده الاساسية ككائن له حاجاته الاخلاقية فتُسلب ارادته من خلال انشغاله باشباع حاجاته الغريزية فقط وابعاده عن الانتباه لتلبية حاجاته الاخلاقية: وبهذا الشكل يتم التلاعب بقدراته والتحكم بسلوكه وطريقة تفكيره ونظرته لنفسه وللحياة. هذه هي بعض من انجع الاساليب للسيطرة على حياة الناس.

هذا التمهيد ضروري لكي يكون بالامكان فهم ما الذي كان ولايزال يريده فارضي الحصار منا نحن العراقيين؟؟.

ان العراق كدولة والعراقيين كشعب يمتلك مقومات القيادة لدول العالم الثالث وهذه ليست طنطنة اعلامية ولكنها حقائق راسخة تمد جذورها الى ابعاد سحيقة في التاريخ والى حاضر لا يمكن لاحد ان يقض الطرف عنه. وبالامكان تأكيد هذه الحقيقة وبأكثر من وسيلة وبأكثر من طريقة ولكن هذا العمل ربما يدفعنا للخروج عن حدود هذا البحث.

ونكتفي في هذا المقام وللتدليل على صحة ادعائنا بايراد تشخيص دقيق للشعب العراقي من مذكرة سرية بعثتها القنصلية البريطانية في بغداد الى وزارة الخارجية البريطانية في لندن بتاريخ ٢٨ تشرين الاول عام ١٩١٥ حول الموقفين العسكري والسياسي في العراق. تقول هذه المذكرة في جملة ما تقول ((.. العراقيون اناس يمتلكون ميلاً طبيعياً الى الارتقاء بحالة اجتماعية اكثر تقدماً)) (قزانجي،١٩٨٩،ص١٣٣-١٣٧).

ان العقول المخططة والخبيثة تدرك هذه الحقائق المتعلقة بالعراق، عليه بدأت باتخاذ سلسلة من الاجراءات منذ خمسينيات القرن الماضي واتضحت وبشكل جلي في عقدي الثمانينيات والتسعينيات من القرن المنصرم –ولاتزال هذه الاجراءات مستمرة– بهدف تركيع هذا البلد كيلا يصبح حجر عثرة في طريق فرض السيطرة على العالم اجمع.

ان السلاح الاشد فتكاً هو ليس السلاح الموجه الى منتجات الحضارة الانسانية ولكن السلاح الموجه الى صانع هذه الحضارة تحديداً، وعلى سبيل المثال فان (وسائل الاعلام) تعتبر احدى الادوات الخطيرة التي يمكن من خلالها تركيع الشعوب بشكل غير معلن او غير صريح من خلال التلاعب باتجاهاتها وقيمها ومبادئها وبالتالي تغيير تركيبتها السايكلوجية وهكذا كانت الحرب التقليدية بدءاً مما أصطلح على تسميته (بالحرب العراقية / الايرانية) في بداية ثمانينات القرن الماضي ومروراً بما اصطلح على تسميته بحرب الخليج!! فالحقيقة ان هاتين الحربين عبارة عن حلقات مترابطة من سلسلة من الحلقات ترمي في النهاية الى تركيع الشعب العراقي. ان فارضي الحصار يعلمون ان البيت الذي يُدمر يمكن اعادة بناءهُ وكذلك المصنع والسلاح لذا فانهم تدميره هو الذي يعيش في البيت والذي يدير الآلة والذي يقف وراء السلاح ويستعمله.

وهناك طريقتان لتحقيق ذلك، اما (بالتصفية الجسدية) للشعب العراقي ككل، وهذا غير ممكن في كل الاعتبارات والمقاييس، اذن لا بد من الحل الثاني وهو (التصفية النفسية) لهذا الشعب.

المبحث الثاني

مرحلة التخطيط

من وجهة النظر العلمية فان محاولة تركيع الشعب العراقي من خلال نشر الظواهر

السلبية والمنحرفة والمتفشية في المجتمع الغربي لا يمكن ان يكتب لها النجاح بسهولة. فالانسان الغربي يمكن ان يقع ضحية الاغراءات ويصبح مدمناً للمخدرات او الكحول او شاذاً جنسياً او لصاً محترفاً او قاتلاً سايكوباثياً وبالتالي تسهل السيطرة عليه. لكن العراقي يحتاج الى جهود مضاعفة لدفعه بهذا الاتجاه وهذا يرجع الى عوامل نفسية واجتماعية وسياسية وتاريخية ودينية تجعل منه حاملاً (لمضادات نفسية وروحية قوية) تمنعه من الاستغراق الكامل في هذه الممارسات التي تسلبه بالنتيجة مقومات وجوده الانساني، ولكن مالا نستطيع تأكيده تأكيداً تاماً وبشكل حاسم فيما اذا كان مختصوا علم النفس هناك على علم راسخ ويقين كامل بهذه الحقيقة ام لا.

اذن لا بد من طريقة لدفع العراقي بهذا الاتجاه أي لابد من طريقة لاضعاف هذه الخطوط الدفاعية في شخصية هذا الانسان وبالتالي فسح الطريق وتمهيدها لهجوم الامراض والانحرافات الاجتماعية والنفسية المنتشرة في مجتمعاتهم. فكانت الصفحة الاولى من صفحات الحرب النفسية هي الحرب المادية في عقد الثمانينات ثم تلتها الصفحة الثانية من صفحات الحرب النفسية والمتمثلة بالحصار والذي يعتبر – ربما – من اقسى الصفحات واشدها عدوانية وشراسة. ان هذه الصفحة هي الاخطر والاعمق تأثيراً والاكثر تدميراً. فما تم تدميره في الصفحة الاولى يمكن اعادة بنائه او بناء غيره؛ ولكن الخطر الحقيقي يكمن فيما يراد تحطيمه في الصفحة الثانية وهو مرتكزات الشخصية العراقية: قيمها وعاداتها وتقاليدها التي شيدت عبر آلاف السنين ونتجت من خلال تراكمات حضارية عديدة وبالتالي سلخها عن امتداداتها تلك وما يترتب من ثم على ذلك من انحرافات خطيرة على مستوى السلوك الفردي والاجتماعي فتصبح هذه الشخصية ارضاً خصبة لنمو الامراض المتفشية في الحضارة الغربية. كل ذلك يتم من خلال استخدام سلاح الحصار بكل انواعه الاقتصادي والثقافي والنفسي أي حرمان العراقي من كل مقومات وجوده الاساسية كانسان من خلال تجويعه مادياً وفكرياً وحضارياً وما ينتج عن هذا الحصار بالتالي من ضغوط فكرية ونفسية رهيبة على الشخصية مما يترتب عليه زعزعة كيانها وتهديمها وبالتالي السيطرة على الشعب ككل وتحييده وابعاده عن ممارسة دوره الحضاري. ولطالما نجح هذا السلاح في تركيع الانسان على الصعيد الفردي والاجتماعي. ومتى ما تم ذلك يكون الاعداء قد كسبوا الحرب بشكل حقيقي وكامل. ان الهزيمة الحقيقية ليست في ساحة المعارك وانما في قلوب وعقول وايمان الرجال بقضيتهم عندما يتزعزع هذا الايمان ويدخل الشك والخوف القلوب والعقول. عند هذه النقطة تحديداً يكون الاعداء قد نجحوا في كسب المعركة بتحييد العنصر البشري عن ممارسة فعاليته الانسانية والحضارية المتوقعة منه حيث يكون الشعب قد انهك نفسياً وفكرياً.

اذن كان الهدف الاساس من الحصار هو تفتيت الشخصية العراقية وتركيعها، واذا ما تم ذلك فان عملية اعادة بناء هذه الشخصية سوف تأخذ وقتاً طويلاً جداً وجهوداً مضنية وفي هذا الاثناء يكون الاعداء قد كسبوا وقتاً ثميناً للتمرير مخططاتهم الشريرة في المنطقة دون معارضة تذكر.

المبحث الثالث
مرحلة التنفيذ

اذا اردنا ان نفهم طبيعة العمليات والتغيرات النفسية التي تحصل داخل الانسان في مثل هذه الحالة، أي عندما يراد تفتيت شخصية الانسان من خلال الحصار فهناك وجهتي نظر في هذا المجال لاتعارض احداهما الاخرى؛ بل تكمل احداهما الاخرى.

وجهة النظر الاولى هي للعالم الامريكي (ابراهام ماسلو). يفترض هنا العالم ان دوافع الانسان تترتب على شكل هرمي، تقع في قاعدة الهرم الحاجات الاساسية البايولوجية مثل حاجة الانسان للطعام والشراب والجنس... الخ. وتعتبر هذه الحاجات الاكثر بدائية أي التي يشترك فيها الانسان مع الحيوان ومع ذلك فهي حاجات اساسية وضرورية لاستمراره على قيد الحياة وكلما ارتفعنا عن قاعدة الهرم ارتفعت الحاجات الانسانية في سموها وصولاً الى قمة الهرم حيث تقع اكثر الحاجات الانسانية رقياً وهي حاجة الانسان لتذوق الجمال والنظام والترتيب والكمال. وبالاستناد الى وجهة النظر تلك فان الانسان

(الشكل –1– يوضح الترتيب الهرمي للحاجات الانسانية بالاستناد على وجهة نظر العالم

عندما يحرم من اشباع حاجاته الدنيا فأنه سوف يلاقي صعوبة كبيرة للانتقال الى الحاجات الاكثر رقياً وسمواً، أي ان الانسان اذا لم يكن بامكانه اشباع حاجاته البايولوجيه مثلاً، من طعام او شراب فان دافع هذا الانسان لتذوق ما هو (جميل ومنظم) أي الانتقال الى الحاجات الاكثر تطوراً وسمواً سوف يكون ضعيفاً. هنا ان لم يتعطل ويُعَوَّق هذا الدافع تماماً (Hilgard. etal.، ١٩٧٩، p:٣١٦). (انظر الشكل١).

(الشكل –١– يوضح الترتيب الهرمي للحاجات الانسانية بالاستناد على وجهة نظر العالم ماسلو) (مأخوذ عن: دافيدوف،١٩٨٠،ص٤٤١).

وعلى أساس ما تم ذكره، فان الانسان اذا لم يتم اشباع حاجاته الدنيا، سوف يبقى همه الاساس ليس تحقيق انسانيته وممارسة دوره الفاعل في صنع الحياة وانما سوف ينحصر همه في السعي وراء لقمة العيش، وبهذا الشكل سوف يتم تعطيل كل دوافعه وقدراته الابداعية، وبالتالي سوف تتم السيطرة الكاملة على الانسان من خلال حبسه في حدود هذا الهم البدائي– ولكن المهم في الوقت نفسه –الا وهو تحصيل القوت فقط. عليه، يتحول (الغذاء) هنا الى (سلاح) قد يعادل – ان لم يتجاوز– في تأثيره اشد الاسلحة فتكاً (زكريا،١٩٨٨،ص٢٢٥).

وجهة النظر الثانية يطرحها عالم امريكي اخر هو (مارتن سلجمن) E.P.M. Sligman صاحب نظرية (العجز المتعلم) helplessness Learned. وتنص هذه النظرية على ان الانسان عندما يواجه خبرة (الفشل) بشكل متكرر فانه وبعد فترة من الزمن سوف يتملكه احساس بالعجز. ويعرف هذا العالم النفسي مفهوم العجز بالقول ".....انه حالة نفسية تنتج عندما تكون أحداث الحياة غير مسيطر عليها، أي ليس في مقدور الفرد القيام بأي شئ حيالها..." (Seligman، ١٩٧٥، pp:٩-١٢). عند هذه الحالة سوف تسيطر على الفرد مشاعر الضعف واللاأمل وافكار العدمية والتشاؤم وانخفاض تقدير الذات. وتتركز هذه المشاعر السلبية لدى الانسان وتترسخ في حال اعتقاده ان سبب او اسباب فشله تتعلق به هو شخصياً وانه لا يستطيع ان يغير شيء من هذا الامر وانه امام شيء اقوى منه (Danker-Brown & Baucom،١٩٨٢).

وهناك طرق عديدة يمكن من خلالها ايصال الانسان الى هذه المرحلة من الاحساس بالضآلة وعدم القدرة على التأثير (بالمحيط) وبشكل فعال. وهكذا، نلاحظ ان ماكان يسمى مثلاً (باللجنة الخاصة) لمتابعة تنفيذ العراق لقرارت الامم المتحدة حينذاك، كانت تعطي الشعب العراقي (الامل) بين فترة واخرى بأن نظامهم السابق اذا نفذ (بنداً معيناً) فانه سوف يتم رفع الحصار جزئياً عنهم. واذا حاولنا تحويل هذا الكلام الى اللغة العلمية الخاصة بنظرية العجز المتعلم فانها سوف تكون بالشكل التالي:-

(تطبيق العراق لمتطلبات اللجنة الخاصة) يعتبر (استجابة)

(رفع الحصار) يعتبر (هدف)

ومن الناحية العلمية –وحتى العملية– فان الانسان يشعر (بالنجاح) عندما يستطيع من خلال قيامه (باستجابة) معينة ان يحصل على (الهدف) الذي ينشده، وعلى العكس،

فانه يشعر (بالفشل) او (العجز) اذا لاحظ ان (استجاباته) لاتقوده الى (الاهداف) التي ينشدها. ويمكن صياغة هذه الافكار بهذا الشكل.

(تطبيق العراق للقرارات) (رفع الحصار)

- نجاح (استجابة) (الهدف)

ما كان يحصل على ارض الواقع ان الشعب العراقي كان يتم إيهامه بان نظامهم السابق قد نفذ مطلبا مهما من مطالب المجتمع الدولي وبالتالي فان رفع الحصار بات قريبا. ولكن وحسب الخطط الموضوعة فأن الشعب العراقي كان يُقَابَل بشيء مغاير أي عدم اعطاءه ما يستحقه كي يواجه خبرة الفشل أي تكون المسألة بهذا الشكل:

(تنفيذ العراق للقرارات) (عدم رفع الحصار)

-فشل

استجابة عدم تحقيق الهدف

المبحث الرابع

الاستنتاج

نستنتج من خلال ما تم عرضه سابقاً ان العدو كان يستهدف تفتيت التركيبة الشخصية للانسان العراقي بطريقتين الاولى من اخلال استخدام سلاح التجويع أو الندرة وعدم الحصول على فرصة أشباع الحاجات الاساسية لكي يبقى الانسان يدور في حدود الهم الاساسي والبدائي وهو تحصيل القوت وهذا مايوضحه نموذج ماسلو للحاجات.

والطريقة الثانية من خلال تكريس الاحساس (بالفشل) وبالتالي (العجز) لدى الشعب العراقي. لذا فانهم كانوا يعدونهم مرة تلو الاخرى بأنهم اذا نفذوا شروط جديدة فان الحصار سوف يتم رفعه، ولكنه وحسب الخطط الموضوعة والمُتَفَق عليها فان الوعود يجب ان لا تنفذ، وهكذا المرة تلو الاخرى، حتى يجعلوا العراقيين يشعرون بأنهم مهما قاموا وفعلوا فانهم لن يستطيعوا رفع الحصار، واذا تم ذلك فعلاً فان هذا يعني حسب نموذج (سلجمن) الانف الذكر ان الاحساس (بالعجز) سوف يستولي على العراقيين، باعتبار ان مسألة رفع الحصار أصبحت قضية بعيدة عن امكانياتهم وعن سيطرتهم وانهم امام ما هو اكبر من قدراتهم وبالتالي فهم لاحول ولاقوة لهم حتى يرفعوا (الراية البيضاء) استسلاماً. فيتميز عندئذ سلوكهم بالخنوع والسلبية والخضوع والاستعداد لعمل كل ما يُطلَب منهم، وهذا بالضبط ما يريد الوصول اليه مخططوا سياسات الدول الكبرى.. الوصول بالشعب العراقي الى مرحلة (الاحساس بالعجز) والاستسلام التام.

المترتبات النفسية والاجتماعية

ان مترتبات الآليات والظواهر أعلاه والتي استخدمها النظام السابق وبتوصيات مباشرة من أسياده المستعمر الجديد كان يقصد منها تحقيق أهداف بعينها والخوض في تفاصيل هذه الاهداف قد تنتهي الى تشعبات عديدة لسنا في حاجة لها، لذا سوف يتم الاشارة الى أهم وأخطر الاهداف التي كان المستعمر الجديد يهدف الى تحقيقها باستخدام السلطة البعثية ومن خلال الآليات والظواهر التي أُشير اليها سابقا وهي:

١.محاولة ضرب الدين الإسلامي والقيم والعادات الأخلاقية السامية السائدة في المجتمع العراقي.

٢.نشر الجهل ومحاربة الابداع.

٣.تفتيت الأواصر والروابط الاجتماعية التي كانت تشد النسيج الاجتماعي العراقي. والتأكيد على الطائفية والعشائرية.

٤.زرع أحاسيس الضعف والعجز في شخصية المواطن العراقي حد الاستسلام.

٥.تأهيل الشعب العراقي نفسياً واجتماعيا وفكريا الى تقبل فكرة التدخل الخارجي لتخليصه من النظام الديكتاتوري القمعي والاستبدادي وبالتالي تقبل فكرة الاحتلال من قبل الاجنبي.

التوصيات

للجانب الروحي والاعتباري وكما نستطيع ان نرى اهمية إستثنائية في حياة الانسان في كل زمان ومكان، وخصوصاً في العراق الذي حباه الله بخصيصة تميزه عن كل بقاع الارض فيمكن اعتبار العراق بلد الانبياء والاوصياء والاولياء الصالحين ومن كل الديانات والشواهد الاثرية والتاريخية اكبر دليل على ذلك. لهذا يعتبر الدين من بين أقوى المضادات للحرب النفسية واكثر المعالجات فعالية لوقف التدمير الحاصل في الشخصية العراقية بسبب الحصار.بسم الله الرحمن الرحيم ((ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون.)) صدق الله العظيم (جـ٢/١٨/سورة البقرة).

تؤكد هذه الآية على ان (الصبر) و (الاحتساب) الى الله يعتبر من انجح الوسائل لتحمل الضغوط النفسية وهذا يتفق تماماً مع ما يؤكده العلم المعاصر. فبالنسبة لنموذج (سلجن) الآنف الذكر. فان (عزو) الانسان اسباب فشله واخفاقاته الى (موضوع) خارج ذاته يقلل من آثار الاحساس بالعجز الى حد كبير جداً. وعلى هذا الاساس فان (احتساب) المؤمن أمره الى الله عز وجل في حال وقوعه تحت تأثير ضغوط نفسية سوف يمنع من وقوعه في هاوية الاحساس بالعجز. وهذا هو بالضبط (احد) المتغيرات الرئيسية التي تميز التركيبة الشخصية للانسان المسلم بشكل عام والعراقي بوجه خاص عن التركيبة الشخصية للانسان الغربي وهذا هو بالضبط (احد) المتغيرات الرئيسية التي لا يمكن غض الطرف عنها اذا اردنا تفسير هذا الصمود العراقي المدهش بوجه اشرس هجمة عرفتها الانسانية. لهذا يوصي البحث :

١-العمل على تعميق الجوانب الروحية والدينية غير المتطرفة.

٢-تعشيق العمل بين الجهد النفسي الاكاديمي المتخصص والجهد الاعلامي (التلفاز، والمذياع، والصحف والمجلات) بهدف كشف النوايا المجرمة التي يسعى الى تحقيقها الاعداء لتحصين المواطن منها .